طلقة (٢٢)

من جد وجد

آسف يا سيادة الرئيس !

إلى البرتغال يا سعد؟!... وكان عليه أن يراجع شريط حياته كله قبل أن يحزم حقائبه، ويترك لندن بعد أن حقق فيها نجاحاً شهد به العدو قبل الصديق... ونذكر كيف عاش في مركز القيادة من أول أكتوبر وحتى ١٣ ديسمبر ولم يذهب خلالها إلى منزله سوى مرة واحدة لمدة ساعتين فقط وكان ١٣ ديسمبر عيد زواجه، وعندما عاد أخذ معه أوراقه كلها ومذكراته الخاصة ولم يكن يعرف أن خدمته قد انتهت بالجيش، وأن أوراقه سوف تستقر في بيته إلى الأبد.. وبعد أيام عندما عاد إلى مكتبه ليأخذ باقي أوراقه، ووجد أن المخابرات الحربية قد سبقته إلى هناك وقامت بالواجب وأخذت أغلب الأوراق ومنها برقيات تهنئة من جهات عديدة بالعبور .. في مساء ذلك اليوم تلقى الشاذلي مكالمة تليفونية من المشير أحمد إسماعيل وزير الحربية يطالبه بالحضور إلى مكتبه وبعد نصف ساعة كان هناك ووجد عنده الجمسي وسعد مأمون فأمرهما بالانسحاب لرغبته في الحوار معي على انفراد وظل يتحدث في موضوعات مختلفة حتى انتهى الكلام ولم يجد عنده سوى الخبر الذي استدعاني من أجله:

إسماعيل: لقد قرر رئيس الجمهورية إنهاء خدمتكم كرئيس للأركان وأصدر قراراً جمهورياً بتعيينكم سفيراً في وزارة الخارجية وعليكم التوجه اعتباراً من الثامنة صباحاً إلى وزارة الخارجية في ميدان التحرير.

الشاذلي: أشكر الرئيس على هذا التعيين وأرجو أن تقوم بإبلاغه بأنني اعتذر عن قبول المنصب وأفضل أن أبقى في منزلي.

الوزير: هل تعني أنك ترفض أمر الرئيس الذي يقضي بذهابك إلى وزارة الخارجية؟

الشاذلي: سيادة الوزير يمكنك أن تفسرها كما تشاء إذا كان الرئيس يعتبر أن هذا التعيين خدمة لي فمن حقي أن أقبل الخدمة أو أرفضها وإذا كان المقصود بهذا التعيين هو العقاب فأنا أرفضه وأفضل أن يكون هناك تحقيق ومحاكمة حتى تظهر الحقائق.

الوزير: أن ما تقوله شيء خطير، هل أقوم بإبلاغ الرئيس ما قلته؟

الشاذلي: الهاتف بجوارك ويمكنك أن تبلغه فوراً!!

الوزير: يا سعد اسمعني بهدوء لو سمحت، رفضك سوف يغضب الرئيس وهو يقدر عملك وجهدك بالقوات المسلحة وأراد تكريمك وأنت تعرف أهمية هذا المنصب وقيمته.

الشاذلي: آسف يا سيادة الوزير أنا أصر على الرفض وأفضل أن يتم عزلي على نقلي إلى وزارة الخارجية ومستعد لكتابة الاعتذار بطريقة رسمية وإذا علم الرئيس برفضي هل سيتم محاكمتي؟ إني أفضل ذلك وأريده.

وراح الشاذلي يكتب اعتذاراً رسمياً ثم غادر مكتب الوزير بعد أن أكد له أنه لن يذهب إلى وزارة الخارجية.

وفي البيت شرح لزوجته ما جرى واستقبلت الأمر بشجاعة وأيدته فيما فعل وحمدت الله لأنه كان يريد الاستقالة ولم يجد الوقت ملائماً لذلك وقد جاء قرار العزل ليرفع عنه العبء وكانت سعيدة لسبب آخر إنساني أن زوجها ومنذ أن ارتبطت به يخرج من حرب ليدخل أخرى، وأفنى عمره ووقته كله في خدمات الجيش في مواقع عديدة، وحمد الله أن زوجته لم تنزعج لإبعاده مثل أغلب الزوجات وارتاحت لما جرى رغبة في الراحة والاستمتاع بالحياة العائلية.

وبعد قليل كان الشاذلي ينتظر حضور «بور شجريف» مراسل جريدة النيوزويك الأميركية وكان قد اتفق معه صباحاً على اللقاء، خاصة أنه سوف يسافر إلى أميركا في اليوم التالي، وعندما جاء المراسل، قال له: أنت صحافي محظوظ وحكي له ما دار في مكتب الوزير وكانت زوجته معه وظن لأول وهلة أنه يمزح، خاصة أنه قدم له الخبر وأدهشه ذلك الارتياح بادياً على وجه الشاذلي الذي قال له: هذه فلسفتي لو اجتمع أهل الأرض على أن ينفعوك بشيء ما نفعوك إلا بشيء كتبه الله

لك ولو اجتمع أهل الأرض على أن يضروك بشيء ما ضروك بشيء كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف، وكان المراسل قد نشر حواراً معي وانتقد فيه السادات وذكرت قصة الثغرة وهنا أعرب عن أسفه ظناً أنه كان سبباً فيما جرى لي.

وبعد مغادرة بورشجريف رن جرس التليفون وكان المتصل اللواء حسني مبارك قائد القوات الجوية وطلب أن يقابلني لأمر مهم وحاولت أن اعتذر له وتأجيل الموعد إلى الغد ولكنه أصر على المقابلة لأنه يحمل رسالة من الرئيس السادات وعند الحادية عشر والنصف جاء مبارك وكان ملخص رسالته:

* الرئيس يقدر تماماً جهدك في القوات المسلحة والخلافات المستمرة بينك وبين الوزير بلغت مرحلة لا يمكن السكوت عليها وتعيينك كسفير لن يقلل من شأنك فسوف تستمر بدرجة وزير وتنال راتب الوزير وجميع مزاياه، ثم أن الرئيس اختار لك أن تكون سفيراً في لندن وهو منصب رفيع يتطلع إليه الجميع، وحتى تطمئن فقد أمر الرئيس بترقيتك إلى رتبة فريق أول والرئيس يتعشم أن تقبل المنصب، وقلت لحسني مبارك: لو أن الرئيس استدعاني وبلغني بهذا الأمر ما رفضته لكن إبلاغي به عن طريق أحمد إسماعيل يحمل الكثير من المعاني، خاصة أنني كنت وما أزال على خلاف شديد معه ومرة أخرى طلبت من مبارك إبلاغ الرئيس السادات رفضي للمنصب.

وغادر حسني مبارك منزلي دون أن ينجح في إقناعي وظهرت الصحف في اليوم التالي تحمل أنباء تعيين الجمسي رئيساً للأركان دون إشارة لمصير الشاذلي، هل أقيل؟.. استقال؟.. عين سفيراً؟.. هل مات؟.. لا شيء على الإطلاق ومع ذلك كانت إجراءات تعيين الشاذلي في الخارجية تمضي في سيرها المعتاد، وخرجت الصحف بعد أيام تحمل خبر اختياره سفيراً في لندن، كل هذا تم بدون علم الشاذلي الذي استفزه ذلك وطلب من رئاسة الجمهورية مقابلة السادات، وبعد أيام اتصل مكتب الرئيس وأبلغني أنه سوف يستقبلني في أسوان يوم ٦ يناير ١٩٧٤ وقبلها كان صدر قراراً جمهورياً بتعييني سفيراً بالدرجة الممتازة ولكني لم اعترف به، لذلك سافرت على حسابي الخاص

وعندما وصلت الطائرة إلى أسوان كان ما يزال أمامي ساعتان قبل موعد اللقاء واتجهت إلى فندق كتراكت وهناك التقي الشاذلي مصادفة بالكاتب محمد حسنين هيكل وبالطبع جرى الحوار حول حرب أكتوبر وما فيها.

مع السادات

يعترف الشاذلي بأن السادات قابله بمودة ولطف وسأله عن أحوال زوجته وبناته ثم عاتبه بشكل فيه أيضاً الكثير من الظرف وقال:

لا لا. أنا زعلان منك إزاي تعمل كده أنت أتجننت أبعت لك حسني مبارك برسالة ترفضها، وفكرت أبعت أجيبك لكن حسني قال لي بلاش لأنه راكب دماغه دلوقتي ومتعصب. وقال الشاذلي: سيادة الرئيس أنا لست منزعجاً من أن أترك القوات المسلحة هذه سنة الحياة، ولكن ما يضايقني هو الأسلوب الذي أبلغتني به القرار.

وضحك السادات قائلاً للشاذلي: واضح أن حسني مبارك بيخاف منك قل لي ماذا تعمل لكي تجعل مرؤوسيك يخافونك ويخشونك؟

واسترسل الرئيس في حديثه وأثنى كثيراً على الشاذلي وأفاض في ذلك كثيراً وقال له أنت ما تزال موضع ثقتي، وأنا اخترت لك لندن لأني احتاج لرجل ذو خبرة عسكرية في لندن ونحن على اتصال بألمانيا الغربية، حيث ستقوم بإمدادنا بأسلحة متطورة ومتقدمة وسفيرنا في ألمانيا رجل مدني هو محمد إبراهيم كامل وكان معي في السجن أيام قضية أمين عثمان ولا يستطيع أن يتابع المباحثات العسكرية وعليك أن تذهب من لندن إلى ألمانيا لمتابعة هذا الموضوع، مهمتك يا سعد هي تسليح الجيش أي أن عملك كسفير هو امتداد لخدمتك في القوات المسلحة. واعتبر الشاذلي أن كلام السادات هذا يكفي جداً لترضيته وقد أدرك الرجل هذا، وبدأ يتحدث عن العلاقات المصرية البريطانية، وانتهت المقابلة وعاد الشاذلي إلى فندق كتراكت لتناول الغداء في انتظار الطائرة والعودة للقاهرة. وفي الفندق التقى مرة أخرى بالكاتب محمد حسنين هيكل وعرف بما دار في

المقابلة مع السادات وبالتالي وقع في يده خبراً لا بأس به فيما عدا مسألة التسليح من ألمانيا لأنها تدخل في نطاق السرية. وعندما أذيع خبر تعيين الشاذلي سفيراً في لندن تناثرت الأقاويل وقتها أن الهدف ليس فقط إبعاده عن مصر، لكنها مؤامرة لقتله، حيث أن المخابرات الإسرائيلية والطوائف الصهيونية المتعصبة سوف تنتهز هذه الفرصة في لندن وهم يعتبرون الشاذلي عدوهم رقم ١. وقال الشاذلي لنفسه: وما الجديد في ذلك لقد كانت حياتي كلها سلسلة من المخاطر وخدمتي في لندن هي حلقة في هذه السلسلة، ولو أنني مت اليوم سوف أموت سعيداً لقد أعطيت بلادي كل ما أستطيع أن أعطيه وقد رأيت ثمرة كفاحي رأيت جنود مصر بعد أن هزمتهم إسرائيل في ثلاث حروب سابقة، رأيتهم يعبرون قناة السويس ويحطمون خط بارليف ويهتفون الله أكبر ماذا أريد بعد ذلك كله؟، لا شيء أيها الموت أهلاً بك فإني لا أخشاك أن الأعمار بيد الله سبحانه وتعالى ولن يستطيع أحد أن يقدم أجلي أو يؤخره عن الوقت الذي حدده الله ولو بثانية واحدة. قبل سفري إلى لندن بأيام طلبني اللواء رفعت حسني نائب رئيس المخابرات العامة وأخبرني أن لديهم معلومات تفيد بأن مجموعة من المتعصبين الإسرائيليين سوف يسافرون إلى لندن لاغتيالي وأن المخابرات الإنكليزية لديها المعلومات نفسها لذلك فإن ميعاد سفري إلى لندن يجب أن يبقى سراً وألا أبوح به لأحد!، وعملاً بنصيحة المخابرات العامة سافر سراً من القاهرة إلى لندن في ١٣ مايو ١٩٧٤ وبعد وصوله بعدة أشهر بدأت تثور الشكوك حول السادات وأهدافه فيما يتعلق بشخص الشاذلي فقد بدأ يصعد هجومه ويوجه إليه الاتهامات بقوة.

وأيقن الشاذلي بأن من مصلحة السادات أن يتخلص منه أكثر من الصهاينة أنفسهم وتذكر الشاذلي كيف مات الفريق الليثي ناصف بطريقة غامضة في لندن (أغسطس ٧٣) وقيدت الحادثة على أنها انتحار، بينما يثور كثير من الجدل والتساؤلات حول وفاته وبطريقة سرية لم يعلم بها أحد من رجال السفارة المصرية أو الليبية وكنت قد حصلت على جواز سفر ليبي لي ولزوجتي وبأسماء مستعارة!.

خارج السياق : بالعبري الصريح

في كتاب إيلي زعيرا رئيس المخابرات الحربية الإسرائيلية في حرب ١٩٧٣ بعنوان حرب الغفران: الأسطورة أمام الواقع نقرأ عن نظرة العدو الصهيوني لهذه الحرب التي عدت انتكاسة إسرائيل الكبرى حتى الآن ، والكتاب صدرت ترجمته للعربية بعد أكثر من عشرين عاما على صدور تقرير لجنة اجرانات التي تم تشكيلها لمعرفة من المسؤول عن الهزيمة في الحرب.

وذكرت الصحف آنذاك أن الكتاب هز الأوساط الأمنية والاجتماعية في إسرائيل مما حدا بالحكومة إلى مصادرته قبل طبعه من قبل جهاز الرقابة العسكرية التابع رأسا للمخابرات الحربية الإسرائيلية وللموساد أكثر من مرة، فهو يكشف أسرارًا لم تنشر من قبل في أي مكان لأن إيلي زعيرا نفسه ظل صامتا بعد إقالته إلى وقت تأليف هذا الكتاب، وبعد أن انتهت فترة الحظر المفروضة على الأسرار العسكرية فتح زعيرا النار على كل من علّقوا به وعليه أخطاء الهزيمة ليقول: كلكم مخطئون عدا المخابرات الحربية وأنا.

في مذكراته هذه التي ترجمها توحيد مجدي يقول زعيرا أن المخابرات المصرية دست معلومات مضللة على غولدا مائير بدون تحليل من المخابرات على أساس أنها موثوق بها وكانت هذه المعلومات هي السبب الأساسي وراء التقديرات الخاطئة التي اتخذتها الحكومة الإسرائيلية.

ويشير إلى أن خط بارليف لم يكن حصنا منيعا كما صورته إسرائيل للعالم، فحين قامت طائرات السلاح الجوي المصري بتصوير الضفة الشرقية لقناة السويس اكتشفوا أن خط بارليف ليس خطا متصلا ولكنه شبكة من المواقع المتباعدة جدا وبين كل موقع وآخر توجد مسافة كبيرة لا يسيطر عليها الجيش الإسرائيلي على الإطلاق، وعلى وجه الخصوص في ساعات الليل.

وفي موضوع الخسائر في الدبابات يقول الباحث: لقد كانت النتيجة أنه من بين ٢٨٠ دبابة كانت موجودة لدى مجموعة عمليات سيناء ظهر السادس من أكتوبر لم يبق في الغداة سوى ١١٠ دبابات، ولقد أصيبت ١٧٠ دبابة نصفها غرق في المستنقعات أو دمر.

ويؤكد المؤلف أنه في حرب أكتوبر فقد سلاح الطيران ١٠٩ طائرات، سبع طائرات فقط فقدناها في معارك جوية، أما الباقي أكثر من مئة طائرة فقدناها نتيجة نيران أرضية من صواريخ متطورة، أما سوريا فكان كل ما فقدته أربع بطاريات صواريخ أرض/ جو، من بين ٣٠ بطارية صواريخ أرض / جو على طول الجبهة.

obeikandl.com